

### الأسماك الجائعة

كانت السفينة التي أعمل فيها تقطع رحلتها بين الاسكندرية وتريستا ، وكان عليها أن ترسو في ميناء بيريه لتفرغ شحنتها وتشحن من جديد . ولم تكن تقل ركابا اللهم إلا بعض البحارة الغرباء الذين يتخلفون في الثغور لأسباب ملحة . وقد انضم إلينا أحد هؤلاء البحارة وكان قد أودع مستشفى المدينة أثر حادث أصابه في مشرب من مشارب بيريه .

كان الرجل جم المرح كثير الدعابة يرسلها من فيه حتى في أخرج المواقف وألمها ، شأن البحارة . . .

أبحرت السفينة من بيريه ومضت تذرع البحر في جو معتدل وسماء صافية . وفي تلك الليلة التي ما برحت أذكرها وأرى صورها ماثلة أمامي — تلك الليلة التي سبقت وصولنا إلى تريستا وقد جلسنا نحكي برفيقنا البحار حول مائدة صفت عليها أواني الشراب وزجاجات النبيذ وما لذ وطاب من طعام شهى ، وقد لعبت الحمر برءوسنا وراح كل منا يتحدث بما عن له من ذكريات البطولة والتفاخر مع مبالغة أحيانا . وحياة وقف زميلنا البحار يتناول بقامته القصيرة ووجهه الذي لم يزل شاحباً وعينيه الضاحكتين الماكرتين وأشار بأصبعه صوب الشاطئ الصخري وكان القمر في صراع دائم مع السحب الكثيفة التي كانت تحجب عنا صفحة السماء . . .

قال صاحبنا في هدوء مصطنع : « انظروا يارفاق إلى تلك الصخور القائمة . فوالله إنى لأرى عليها الدماء البشرية وأسمع سقوط أجسام الضحايا الموثقة وهي تقذف من عل فتلتقفها الأمواج ويسرع إليها «أبو مورينة» ذلك السمك الذي كان الناس يعتقدون أنه لا يكبر ولا يوجد لحمه ويطيب إلا إذا أطمع وأشبع من لحوم الجوارى الحسان . وإنى لأرى كذلك صفحة البحر وقد امتزجت بالدماء

وبين أن وآن تنفرج أمواجهما عن أشلاء متناثرة . ومن عجب أنها لم تزل تدب فيها الحياة فيسبح كل شلو منها إلى شلو فتمت كامل منها أجسام حية وتنتصب فوق الماء في قامات فارعة يتبدل شعرها الفاحم فوق ظهور فاتنة ، وترسل عيونها نظرات ساحرة تفيض حباً ورحمة . وها هي ذى مائلة أمامى وقد انتظمت حلقات حلقات ترقص رقصة الموت وتنشد أناشيد الأسمى والشجن . وتحت أقدامها سمك المورينة الجائع يتطلع إلى هذه الأجسام البضة الناعمة الفتية ولا يستطيع لها طلباً ، فها هي إلا خيالات ضالة في هذا الخضم الفسيح تهيم حيناً ثم تثب فوق الصخر وتنبطح عليه وقد انتفش شعرها . وماتت الابتسامة على تلك الشفاه الغضة التي كانت يوماً ما تبسم في مرح الشباب ورونق الحياة . وهام أولاء عمالقة الجلادين غلاظ الأكباد قد شرعوا يشدون وثاق هذه الجثت الحية ثم يقذفون بها واحدة إثر أخرى في فترات متباعدة إلى تلك الأسماك الجائعة القرمة إلى لحوم البشر . . . . .

وعاد صاحبنا إلى مقعده ورجع إلى شرابه يعبه عباً ، ومضى يقلب ناظريه في وجوهنا المتلهفة إلى سماع حديثه وقد لاحت على أساريره علائم الخبث . ولعله كان يطربه ما يحسه من شوقنا وتلهفنا إلى استرساله في هذا الحديث الممتع . غير أن صمته لم يطل فقد رفع رأسه وقال : « ما أظنكم رأيتم ما رأيت ، على أن مخيلتي لم تحتلق هذه الصور ولم تنسجها من خيال كاذب ، ولكنها وليدة قصة وقعت حوادثها في عصور خلت أيام كان للوثنية شأن ودولة وعز ووصولة ، وكانت المسيحية في فجرها الأول ما تزال طفلة تتعثر أمام تلك الغول الوثنية التي كثيراً ما عدت عليها وأذاقتها مر العذاب ونكلت بها وتمرت لها .

كان « أنطونيو » من أشرف مدينة « فينيسيا » وسراتها ، وكان وسيم الطلعة واسع العينين مديد القامة ، ولم يكن كغيره من الأشراف متكبراً بل كان على العكس وديماً رحماً بالناس . وقد حبه هذا إلى مواطنيه ، وكان واسع النفوذ كريم الخلق ، فنعم بحب الجميع وحظى بعطف قيصر .

تعلق « أنطونيو » بالفتاة « هريانا » إحدى بنات الشعب وكانت الفتاة غاية في الجمال كأنها تحفة نادرة أو تمثال حى من آيات الفن صاغتها آلهة الرومان على ما تشتهى وتشاء . أما عينها فكانتا جوهرتين فانتين انتزعتا لونهما من زرقة البحر ، وكانتا عميقتين لا يسبر غورها ، ساحرتين ، في نظراتهما فتنة وإغراء وأقل

كانتا ترسلان سهاماً تشيع في النفوس الخوف وأشعة رقيقة تبعث فيها الرجاء تحت الخطبة بين الفتى والفتاة وراحا ينعمان بالحُب ويرشفان من منهله العذب . لم يتركا جنة إلا أظلتها أغصانها وأحاطت بهما فيها الورود والرياحين وصدحت لهما الأطيوار بأناشيد الغزل والنسيب . وكان الفتى ينسرف في أذن حبيبته كلاماً حلواً فيه رقة وعذوبة . وكثيراً ما حدثها عن جمال الحب الذي يظل كلَّ حى في الرياض ، ويقول إنى لأراه في عش الطير حانياً على صغاره ، وأراه في ثنايا الأزهار تنقله الحشرات من كم إلى كم . وقد يسعدنى كما يسعدك أن ترى لنا طفلاً يكون موضع حبنا وزهرة آمالنا . وإنى لتواق إلى أن نعجل فبنى هنا هذا العش الجليل . وكان أن بنى لها ذلك العش ووهب لها فيه غلام . ولكنها أغمضت عينها وأشاحت بوجهها عن الطفل عندما دفعته إليها إحدى القابلات . ودعش الحاضرون كما دعش الزوج عندما رأوا جفوة الأم وإصرارها على أن يفصل بينها بين ابنها مدة اعتكافها . وما كادت تتأمل حتى فرت وهجرت العش وخلفت فيه الزوج البائس والطفل الضعيف ، وتركت للزوج رسالة تبين له أسفها الشديد على ما فعلت ولكنها لم يكن في طوقها أن تفعل غيره ، وأنها لم تركز إلى الفرار إلا حرصاً على حياة ولدها ولتنقذه من موت محقق ؛ فقد كانت أمنية الزوج أن تنجب له هذا الطفل العزيز لينعم بحبه فأرادت أن تحفظه له وليكون أئمن تذكاً لها عنده . وفسرت ذلك بأنها خشيت على طفلها من نظرات عينها ؛ فقد كانت أخفت على زوجها أنها كانت كلما نظرت إلى طفل لا تلبث أن تسمع نعيه بعد يوم أو يومين ، وأنها كانت تألم لذلك الألم كله وتعجب كيف تنقلب هذه النظرات التي كثيراً ما قيل إنها حلوة جذابة سماً زافاً يقتل هؤلاء الأبرياء الصغار . وقالت في رسالتها : لقد حدث ، ويا لهول ما حدث ، أن جاء أخى يتوسل إلى أكثر من مرة أن أزوره لأرى ابنه الصغير ، فكنت أتلمس المعاذير وألفقها لأتقى هذه الزيارة . وأخيراً يتس أخى من ذهابى إليه فحضر ومعه طفله ودفعه إلى ثبات هذا العزيز بعد أسبوع . . .

« وهكذا ترى أيها الزوج العطوف أنتى إنما فررت لينجو ولدنا من هذه النظرات القاتلة . وقد استقر عزمى على أن ألبأ إلى أحد الأديار المسيحية التي يتعبد فيها الناس خفية . وإنى لأقدم هذه التضحية راضية مطمئنة عسى أن يبدلنى الله بهذه النظرات القاتلة نظرات أخرى تحيى القلوب . فهم يقولون إن

هذا الرسول الجديد يشفى المرضى ويحيى الموتى ، فلعله يشفينى مما أنا فيه من  
 تعس وشقاء . . . وانضمت هريانا إلى أحد الأديار التي تعمل في الخفاء على نشر المسيحية رغم  
 ما تلاقيه من اضطهاد وتعذيب وقتل وتشريد . وكثيراً ما يداهم عمال قيصر  
 وجندهم هذه الأديار ويدكونها دكا على من فيها من أحياء ، وقد يأخذون من يبقئ  
 من ساكنيها حيا ويلقون به في البحر إلى الاسماك الجائمة .  
 . وحدث أن دهم الجندي هريانا وأخذوا الراهبات ، وكان فيمن أخذوا هذه  
 الراهبة التي وهبت نفسها بعد زوجها للسيد المسيح ، وصلت كثيراً وانقطعت  
 للعبادة وضحت بهذا الشباب الغض الذي ذبل بين جدران محرابها الصغير تركع  
 فيه أمام الصليب واصله ليلها بنهارها حتى اختفى من نظراتها ذلك البريق الخفيف  
 الذي يبعث الرعب والفرع في قلوب هؤلاء الأبرياء الصغار .  
 قبض الجندي على هؤلاء النسوة الضعيفات وأوثقوهن وأرسلوهن إلى تلك  
 الصخور المتعطشة لدم الضحايا وإلى الاسماك الجائعة لتتغذى وتشبع ويجود  
 لحمها ويطيب ويصلح لموائد القياصرة ويقدم قرباناً على مذابح الآلهة .  
 وضعت هذه الجثث الحية الموثقة فوق الصخور ومن حولها الجلادون  
 العالقة ، وقد وقف كبيرهم على رأسهم ملوحاً بيده فيلقون بإحدى هذه الضحايا  
 التلسة إلى البحر . وما إن سمع « أنطونيو » بكارثة الدير وما انتهت إليه وعلم  
 كذلك ما آل زوجه الراهبة ، وكان لا يزال يكن لها الحب كله ، حتى أسرع  
 وحظئ بمقابلة قيصر ورجاه وألح في الرجاء واستعطفه وألح في الاستعطاف حتى  
 فاز أخيراً بعفو القيصر عن زلة زوجه على شريطة أن تهجر دينها الجديد وتعود  
 إلى الوثنية الحقنة دين قيصر ، وسلم أنطونيو رسالة فيها أمر بالعفو عن  
 الراهبة هريانا .

وامتطى أنطونيو صهوة جواده وأخذ يضرب في الأرض ويطويها طياً وهو  
 يلوح بالرسالة في يده فرحاً بما وصل إليه قلقاً من أن يصل بعد فوات الوقت . .  
 ومفاجأة توقف صاحبنا البحار عن الحديث وكان قد نكس رأسه ثم رفعه  
 ومضى يهذى بكلام غامض غير مفهوم لكثرة ما شرب ، وساد الهرج والمرج  
 بين الجماعة التي احتدم بينها النقاش ، وقام صاحبنا متثاقلاً إلى سريره في السفينة  
 وطفق يغط في نوم عميق

ولما أصبح الصبح هرعنا إليه والتفطنا حوله ورجونا أن يتم حديثه ، فنظر  
إلينا ساخراً وقال « أي حديث يرافق . . . ! دعوني أذهب إلى متري لأقابل زوجي  
وابنتي » . فصاح به أحدنا « أ كنت إذاً تكذب على التاريخ » . فأجاب صاحبنا  
في برود وسأم وكأنه لا يعرفنا « إن التاريخ يا سادة لزخار بالأكاذيب ، فلم  
لا نضيف إليه أكذوبة أخرى ! » . وغادر السفينة ونحن نشيعه بنظرات  
ملؤها الخنق والغضب .

حسين فرج زبون العاجرين

تمت